(تنمة مبحث شعر الخوارج)

وأما المديح القديم قد تحول أيضاً في شعر الخوارج إلى مديح جديد يقوم على الثناء بالشجاعة والتقوى على الجماعة الخارجية المثالية التي تحرص على الاستشهاد بدافع من روح التقوى. قال الطرماح بن حكيم:

للهِ دَرُّ الشُّرَاةِ إِنَّهُمُ إِذَا الْكَرَى مَالَ بِالطُّلَى أَرَقُوا
يُرْجَعُونَ الْحَنِينِ آوِنَةً وَإِنْ عَلا سَاعَةً بِهِمْ شَهَقُوا
خَوْفًا تَبَيَّتْ الْقُلُوبُ وَاجْفَاءً تَكَادُ عَنْهَا الصُّدُورُ تَنْفَلِقُ
قَوْمٌ شِحَاحٌ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ بِالْفَوْزِ مِمَّا يُخَافُ قَدْ وَثِقُوا

وهكذا يرتبط الثناء عليهم بالبسالة والشجاعة بتقواهم، بل إن شجاعتهم لتعزى إلى تقواهم، كما في أبيات عيسى بن فاتك:

فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلُّوا وَقَامُوا إِلَى الْجُرْدِ الْعِتَاقِ مُسَوِّمِينَا
أَأَلْفَا مُؤْمِنٍ فِيمَا رَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسِيكَ أُرْبَعُونَ نَا
هَمُّ الْفَيْئَةِ الْقَلِيلَةُ غَيْرَ شَاكٍ عَلَى الْفَيْئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَا

إن الخوارج في شعرهم فرسان أتقياء، لا يعرف لهم الشعر صفة أخرى، وهذا معنى قولنا إن المديح القديم قد تحول إلى ثناء بهاتين الصفتين فحسب.

وطبيعي أن يتحول الهجاء عندهم إلى نقض هاتين الصفتين، فكانوا يهجون أعداءهم بصفات الكفر والفجور والغدر والضلال والجبن، فهذا قطري بن الفجاءة يعقد مقارنة بين الخوارج وأعدائهم قائلاً:

فَلَوْ شَهِدْتَنَا يَوْمَ ذَلِكَ وَخَيُّنَا تُبِيحُ مِنَ الْكُفَّارِ كُلِّ حَرِيمٍ
رَأَتْ فَنِيَّةً بَاعُوا إِلَهَةَ نَفُوسَهُمْ بَجَنَاتٍ عَدِنَ عِنْدَهُ وَنَعِيمٍ

وكان لوم الخوارج المنحرفين لا يخرج بهم عن دائرة الإيمان، وإنما يرمون بأن الدنيا قد خدعتهم وغرتهم، فالتوت بهم عن مبادئهم. قال قطري يلوم سبرة بن الجعد الذي خذل مبدأه وصار نديماً للحجاج يتردد عليه في قصره:

أبا الجَعْدِ أَيْنَ العِلْمُ والجِلْمُ والنُّهْيُ وميراثُ آباءِ كِرامِ العِناصِرِ
ألم تَرَ أَنَّ المَوْتَ لا شَكَّ نازلٌ ولا بَدَّ من بَعَثِ الأُلَى في المِقابِرِ
فإنَّ الذي قد نِلْتَ يَفْنَى وإنَّما حياتُكَ في الدنِيا كَوَقْعَةِ طائرِ
فراجِعْ أبا جَعْدٍ ولا تَكُ مُعْضَباً على ظُلْمَةٍ أَعَشَّتْ جَمِيعَ النِواظِرِ
وَتَبَّ تَوْبَةً تُهْدِي إِلَيْكَ شِهادَةً فإنَّكَ ذو ذَنْبٍ ولَسْتَ بِكَافِرِ

وهكذا يتخذ الهجاء عندهم لوناً جديداً، فإذا هو بالنسبة لأعدائهم هجاء حاد بالكفر والإلحاد ومجافاة روح الإسلام، أما إذا كان فيما بينهم فهو نقد لروح التخاذل وحض على الاستمساك بمبادئهم، مع التذكير بفناء الدنيا والإشادة بثواب الآخرة.

نستطيع أن نزعم بأن الموضوعات الشعرية قد تحولت في شعر الخوارج إلى موضوعات جديدة، وكان محور هذا التحول عقيدتهم التي آمنوا بها، فلم يستلهموا غير مبادئهم وإيمانهم، وقصروا فنهم الشعري على أنفسهم، فلم يمدحوا غيرهم، واقتصر رثاؤهم على إخوانهم الذين قتلوا في سبيل عقيدتهم، وكان هجاؤهم لأعدائهم هجاء دينياً، وإخوانهم يشبه النقد والعتاب، وكانت عناصر هذه الموضوعات جميعها لا تخرج عن إثبات صفتين هما: التقوى والشجاعة، في المدح والرثاء والفخر، ونقضهما في هجاء الأعداء، ودعوة للاستمساك بهما في نقد سلوك المنحرفين من رفاق المذهب.

حزب الزبيريين

يُعد حزب الزبير أقل هذه الأحزاب شعراً وشعراء، ومن الواضح أن السبب في هذا يرجع إلى قصر المدة التي نهض فيها هذا الحزب بدوره السياسي وهي مدة لم تتجاوز عشر سنوات، من سنة ٦٣هـ التي اعتصم فيها ابن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة إلى سنة ٧٣هـ التي لقي فيها مصرعه في حصار الحجاج لمكة. وبموته انتهى شأن هذا الحزب، وربما كان السبب راجعاً أيضاً إلى أن ابن الزبير لم يقدر أهمية الدعاية لحزبه ومبادئه فلم يهتم بها، ولم يوجه إليها عنايته، ولم يعمل على إرضاء الشعراء بالعطاء كما كان يفعل غيره من الخلفاء الأمويين، فوقف ذلك بينه وبينهم، فلم يلتفتوا حوله بل انصرفوا إلى أخيه مصعب الذي كان فارساً يمثل الفخامة

القرشية في أقوى صورها. وأهم شاعر في هذا الحزب هو عبيد الله بن قيس الرقيات، بل لعله الشاعر الوحيد الذي وهب فنه للتعبير عن نظريته السياسية والدفاع عنها والدعاية لها.

وعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قرشي ولد بمكة في العقد الثالث للهجرة ثم أقام بالمدينة فترة طويلة. وبين مكة والمدينة قضى شبابه شاعراً من شعراء الغزل على الطريقة الحجازية، وإلى جانب هذا الغزل شغل بالمغنين والمغنيات الذين كانت تغص بهم المدينتان الكبيرتان.

وفي أثناء خلافة يزيد بن معاوية رحل إلى الجزيرة ليبتعد عن الأحداث السياسية التي اضطرت في المدينة بسبب ثورة أهلها على يزيد. فلما حدثت وقعة الحرّة التي تعرضت فيها المدينة لهجوم جند الشام بدأت صفحة جديدة من حياته، فمضى يبكي المدينة بكاءً مرّاً تتأجج فيه نيران الحقد والانتقام:

إن الحوادث بالمدينة قد	أوجعني وقرعن مروتيه
يُنعى بنو عبد وإخوتهم	حلّ الهلاك على أقاربيه
والله أبرح في مقدمة	أهدي الجيوش عليّ شكّتيه
حتّى أفجعهم بإخوتهم	وأسوق نسوتهم بنسوتيه

ومن أعماق الحزن تراءى له عبد الله بن الزبير البطل القرشي الذي سينقذ الخلافة الإسلامية وبعيدها إلى الحجاز. فشد رحاله إلى العراق حيث مصعب بن الزبير الذي فضّل الشاعر الإقامة إلى جواره وراح يسجل في شعره نظرية الزبيريين السياسية، التي تتادي بعودة الخلافة إلى الحجاز لتقوم عليها قريش كما كان الأمر أيام الرسول والراشدين.

وحول هذا المحور أدار الرقيات شعره السياسي تقريراً لهذه النظرية، ودفاعاً عنها، ومدحاً لابني الزبير عبد الله ومصعب، وهجاءً لبني أمية، وتهديداً لهم، وثناءً لقتلى الحرّة. ومرج راهط، وبكاء على المصير الذي آلت إليه الدولة الإسلامية.

وأبرز ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التي يستهلها ببكاء منازل الحجاز التي هجرها الأمويون إلى دمشق فتركوها مقفرة خالية تستثير الأسى، وكأنه يستبدل ببكاء الأطلال هذه المقدمة الجديدة:

أفقرت بعد عبد شمس كداء فكُدي فالرّكن فالبطحاء

وبعد أن يطيل في نكر هذه المنازل وأهلها، ينطلق إلى قضيته السياسية يدافع عنها، ويرد بها على الأحزاب الأخرى، وعلى بني أمية الذين استباحوا مدينة الرسول، وقتلوا الحسين في كربلاء، مفتخراً في أثناء ذلك بقريش ورجالاتها في الجاهلية والإسلام، متمنياً أن تعود الحياة كما كانت أيام الجماعة قبل أن تتفرق بها الأهواء. وهو لا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك وبني أمية الذين سببوا ذلك:

أيها المشتهي فناء قريش	بيد الله عمرها وفناء
إن تُودع من البلاد قريش	لا يكن بعدهم لحيّ بقاء
حبذا العيش حين قومي جميع	لم تفرّق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في مل	ك قريش وتشتت الأعداء
كيف نومي على الفراش ولما	تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي	عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكم بني أمية مُزور	وأنتم بنفسي الأعداء

ولم يكتف الرقيات - انتصاراً لقضيته السياسية - بهذا اللون من الشعر السياسي الخالص، وإنما اتجه إلى لون آخر، وهو الغزل السياسي الذي يتخذ من الغزل وسيلة لخدمة هذه القضية. وهو اتجاه كان قد سبقه إليه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجّت الخصومة بينه وبين يزيد بن معاوية، فاتخذ من الغزل بأخته رَملةً وسيلةً يغيظه بها، فمضى الرقيات يتغزل بعاتكة زوجة عبد الملك وبأم البنين زوجة ابنه الوليد غزلاً أغاظ الأمويين وأحنق صدورهم حتى أهدروا دمه. وكان الرقيات . في الوقت نفسه . يشبب بزوجتي مصعب: عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار، أراد أن يرضي به مصعباً. فإذا ما قرنا صورتني الغزل بعضهما إلى بعض تبين لنا خبثه ومكره، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيري السياسي. ومن قوله في عائشة:

جنيّةً بَرَزَتْ لِنَقْتَانَا	مطليّةً الأصداع بالمسك
عجباً لمتلك لا يكون له	خزج العراق ومنبر الملك

تَرْمِي لِنَقْتَانَا بِأَسْمِهِمَا وَنَزُّهَا بِالْحِلْمِ وَالنُّسَاكِ

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف، وفي المقابل كان يأتي بغزله بعاتكة
وأم البنين بصورة تؤذيها وتؤذي الأمويين كلهم. قال في عاتكة:

أَعَاتِكَ بِنْتَ الْعَبْشَمِيَّةِ عَاتِكَا أَثِيْبِي امْرَأً أَمْسَى بِحَبِّكَ هَالِكَا
بَدَّتْ لِي فِي أَتْرَابِهَا فَفَتَانَنِي كَذَلِكَ يَقْتُلْنَ الرِّجَالَ كَذَلِكَ

ويتخيل أم البنين جاءتة في الحلم فنال منها كل ما أراد، وكأنها امرأة مبتذلة لا
يمسكها طهر ولا عفاف، فهي تمضي معه في اللهو إلى طلوع الفجر، قال:

أَتَنَّتِي فِي الْمَنَامِ فَقُلْتُ بْتَ هَذَا حِينَ أُعَقِبْتُهَا
فَلَمَّا أَنْ فَرَحْتُ بِهَا وَمَالَ عَلَيَّ أَعْدَبْتُهَا
شَرِنْتُ بِرَيْقِهَا حَتَّى نَهَلْتُ وَبِتُّ أَشْرِبُهَا
وَبِتُّ ضَاجِعَهَا جَذَلًا نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا
وَأَيْقِظَنَا مُنَادٍ فِي صَلَاةِ الصَّبْحِ يَرْقُبُهَا
فَكَانَتْ لَيْلَةً فِي النُّو مِ نَسْمُرُهَا وَنَلْعَبُهَا

ثم يقتل مصعب ويقتل عبد الله ويقضى على حركة الزبيريين وينتهي الشاعر إلى
الشام ويتجه بمدائحه إلى عبد الملك. ومما قال فيه:

إِنَّ الْفَنِيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْـ عَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجْبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

لكن عبد الملك لم يطب نفساً له ولم يعجبه هذا المديح كثيراً، وقال: «ما زدت على
أن جعلتني ملكاً من ملوك العجم.»

وفرق كبير بين هذا المدح وقول الرقيات في مدح مصعب بن الزبير:

إِنَّمَا مِصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّـ هِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ